«طاعة» الشام!

[مهداة إلى الأستاذ شفيق جبرى]

للأستاذ على حيدر الركابى

أستاذى الفاضل :

نشرت لكم مجلة (العالم العربى) كلمة بعنوان (طاعة الشام) فى عددها الصادر فى اليوم العاشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٧ فقرأتها ووقفت أمامها حائراً بين الرد عليها والسكوت عنها . كان يدفعنى إلى الرد أنكم عالجتم موضوعاً خطيراً ومثيراً ، ووجهتم إلى بلدكم الذى هو بلدى تهماً لا يقبلها ذو كرامة . وكان يدفعنى إلى السكوت أنى نشأت على الإعجاب بكم واحترام علمكم والثقة بآرائكم وقلت فى نفسى إن أستاذنا الكبير لا ينطق عن الهوى وإن له من سعة الاطلاع وكثرة التجارب وعمق التفكير ما لا يبقى معه مجال لاعتراض معترض . وأخيراً ترجح عندى التريث حتى تظهر نتائج الانتخابات العامة فى سوريا وهى أكبر محك للشعب : فإذا رافق الانتخاب ضغط وتدخل وسكت عن ذلك أهل الشام سلمت بنظرية أستاذى الكبير ولزمت الصمت وكفى خجل من طاعة الشام ، وإذا حال أهل الشام دون الضغط والتدخل وتقدموا إلى الانتخاب بحرية وميزوا بين الصالح والطالح كتبت الرد .

وظهرت النتائج الباهرة فإذا بى أتناول القلم لأكتب هذا الرد . ولا أخفى عنكم ياسيدى أننى فى سرى كنت أتوقع شيئاً مما حدث وأدعو الله أن يحققه . فإذا تجرأت الآن على مخاطبتكم على صفحات (الرسالة) فإنما أفعل ذلك بدافع من حبى للشام واعتزازى بأهله وشعورى بواجب الدفاع عنهم بالحق كما أنى من جهة ثانية واثق من رحابة صدركم :

زعمتم يا سيدى أن فى خلق أهل الشام « طراوة ونعيماً » جعلتهم يشتهرون بالوداعة وبالطاعة والمتابعة . واستشهدتم على ذلك بعبارات قالها بعض رجال التاريخ العربى ثم فتشتم عن سبب هذه (الطاعة) فوجدتم السر فى « طبيعة بلاد الشام — هوائها وماءها وسمائها وأرضها » ولجأتم إلى (أميل لودويغ) لدعم رأيكم وخرجتم من ذلك كله بأن طعنتم رجولة الشام وأهلها وأشرتم إلى اغتيالات مصر وثورات العراق بما يفهم منه ضمناً أنكم آسفون إذ لم تحذ الشام حذو شقيقتها . وكان بودكم أن تطيلوا البحث لولا أن «المجال لا يتسع للتبسط فى الكلام على طبائع أهل الشام» ولولا أن لطف الله و « اقتصرت من هذه الطبائع على واحدة » لقرأنا لكم عن قومكم مالا يبقى ولا يذر ! وختمتم بحثكم بكلام عام عن « تشتت أخلاقنا » وضربتم مثلا عليه تعدد النزعات السياسية بيننا .

أما استشهادكم بالأقوال التاريخية فلا أود أن أتعرض له بأكثر من كلمة : ذلك أن كلام القادة والولاة والمؤرخين الذين نقلتم عنهم إما أن يكون وصفاً واقعياً وفى هذه الحالة يكون منطبقاً على عصر القائل وليس شرطاً أن يكون الخلق الموصوف باقيا حتى العصر الحاضر ، وإما أن يكون الوصف ذاتياً أى أنه وصف للصورة التى كونتها فى نفس القائل تجاربه الشخصية والتى حملته على أن يستخلص حكما عاماً من حوادث خاصة وفى هذه الحالة لا يصح الاستشهاد به .

أما نسبتكم طاعة أهل الشام إلى اعتدال مناخهم : ورقة طباعهم إلى جمال بلادهم فإنه يحوى فى طياته جزءاً من الحقيقة لا كلها . ذلك أن الطبيعة يا سيدى — وسيد العارفين — ماهى إلا عامل واحد من العوامل التى تؤثر فى طباع الناس . ومعاذ الله أن أتعدى على علمكم وفضلكم فأروح أعدد تلك العوامل أو أشير إلى علماء الاجتماع وكتبهم؛ ولا أسمح لنفسى إلا بأن أذكركم — بكل تواضع — بأن الأحداث الخطيرة التى تتعرض لها الأمة ذات أثر قوى فى تكوين طباع أفرادها ، وهو أثر لا يقل عن أثر الطبيعة نفسها لا بل قد يفوقه . ومن هذه الأحداث الحروب والكوارث الوطنية والحكم الأجنبى والأزمات الاقتصادية الخ. ولعلكم تعترفون كذلك بأن الثقافة وانتشار التعليم من العوامل الرئيسية . وعلى هذا فإن طبيعتنا الحلوة إن ولدت فى أمزجتنا اعتدالا وفى شمائلنا رقة فإن تلك الأحداث قد أوجدت فينا إلى جانبها قوة الشكيمة وصلابة العود وإن انتشار التعليم قد خلق فينا وعياً وقدرة على التمييز .

وليس مثلكم من يحتاج لأن تضرب له الأمثال عن صلابة

عود أهـل الشام وأنتم فى طليعة موكب الكفاح والوطنية . ولا أحب أن أحياكم على كتّاب من أبناء فرنسة سجلوا لنا الفخار واعترفوا لنا بقوة العزيمة . بل أدعوكم إلى رحلة زمنية ومكانية نبدأ فيها بالغليان الفكرى الذى ولد ثورة العرب على العثمانيين والذى كان من أقطابه أبناء الشام البررة الذين أدوا ضريبة الدم على مشانق (جمال باشا السفاح) . ثم نسير فى ركاب (فيصل) من الحجاز إلى الشام لنشاهد وا الشاميين فى عداد أعوانه وجنوده . ونستقر بعد ذلك فى ربوع الشام نفسها حيث قام مُلك عزيز قوى عقد العرب عليه آمالهم . وما كان لينهار لولم تتآمر الدول المعظمة عليه . ولعلكم لم تنسوا (ميسلون) وروابيها المخضبة بدماء الأبطال وأنتم تمرون بها فى طريقكم إلى مصيفكم الهادىء فى (بلودان) ونتنقل بعد ذلك فى (حلب) وجوارها أيام الزعيم (هنانو) وفى (دمشق) و (الغوطة) و (جبل الدروز) ونحيى معاً التربة التى قدستها أرواح شهدائنا . ثم نتجول فى شوارع مدننا وأزقة قرانا ، فى سهولنا الخصبة وجبالنا الخضراء ونستمع إلى قصص البطولة والمجد المسطرة على كل حجر وفى كل شبر من الأرض — سطرناها فى كل يوم من أيام استعبادنا البغيضة لنسمع الملأ بأننا لا نقام على الضيم . ألا يسعدكم أن تعيشوا ثانية — فى الخيال — تلك الأيام الخمسين التى أضربت فيها البلاد من أقصاها إلى أقصاها حتى أذلت الشامخ وأنزلته من عليائه ليمد لها يد الصداقة . ألا يثلج قلبكم أن ترتقوا ثانية — فى الذهن — منبر الجامعة السورية لتؤبنوا (هنانو) بمرثية دكت عرش الغاشم وأذنابه ؟ وهل تسمون الإعراض عن مغريات المستعمر فى ذلك الإضراب المخيف أو استجابة الشعب لصرختكم الدوية طاعة ووداعة ؟ وتلك السجون التى ملئت فيها مغى بأحرارنا ، وهذه القلاع الحصينة المشرفة على عاصمتنا وسائر مدننا ، هـل أقامتها فرنسة خوفاً من طاعتنا ووداعتنا ؟ وهذه المخازى الجنونية التى تركت فرنسة لنا أثرها الوحشى فى دار (البرلمان) وفى غيرها من دورنا العامة والخاصة هل تعدونها وثيقة اعتراف منها بأننا كنا طائعين ووادعين ؟ وذلك الجلاء الذى تم وهذا الاستقلال الذى ننعم به وهذه المكانة الدولية المرموقة التى باتت فخراً للعرب كافة هل هذا كله من صنع الطاعة والوداعة ؟

كلا يا سيدى ! لقد خانتكم الذاكرة وما أسعفكم التعبير ، ثم أخطأتم فى الحساب فما كانت ثورة واحدة بل ثورات ...

لا إخالكم تنكرون ذلك ، وأغلب ظنى أنكم تأخذون على أهل الشام طاعتهم لحكامهم بعد الاستقلال لا قبله وأنكم ترون هؤلاء الحكام « على مقدار من الجهل وكره العلم لا بأس به وحصروا مرافق الدولة فى حزبهم وأصحابهم وحبسوا وظائفها على صنائعهم وعبثوا بالقانون وبددوا بيت المال » . إن كان هذا قصدكم وإن صح أن هؤلاء الحكام كما ذكرتم أفلا أقنعتكم الحوادث أن الشعب لم يقف منهم موقف الطاعة والوداعة ؟ لقد رفض الشعب اتفاق (بفن بيدو)[1] وغضب على المرسوم (٥٠)[2] وطالب بتعديل قانون الانتخاب وتأهب للوثوب فيما إذا وجهت الانتخابات توجيهاً خاصاً فانتصر على طول الخط إذا اضطرت الحكومة بعد تبنى الاتفاق المذكور إلى نبذه واللجوء إلى مجلس الأمن ، كما أرغمت على سحب المرسوم (٥٠) وعدل مجلس النواب قانون الانتخاب فأصبح على درجة واحدة ، وأخيراً جرت الانتخابات فإذا بها تخلو فى الغالب من الضغط والتدخل ، وإذا بنتائجها تدل على أن الشعب لم يكن طائعاً وادعاً . لم تكن هناك طاعة عمياء بل تمرد واع على كل باطل وقد بلغت البلاد بفضل ذلك درجة من التقدم فى تطورها السياسى لم تبلغه كثير من الدول التى سبقتها إلى الاستقلال .

هذا ما قام به الشعب . أما رد الطعن على هذه الحكومة فى مجالسنا الخاصة وفى مقاهينا فيتلاشى هذا الطعن كما يتلاشى دخان المقاهى فى الفضاء » فهو من عمل الخاصة لا العامة — الخاصة التى لا تمثل حقيقة الشعب فى خوفها على تعكير صفو حياتها ، فى تأنيها وبطئها ، فى أبراجها العاجية الرفيعة ، فى أهدافها المجهولة وغاياتها الحائرة ، فى تذمرها (النظرى) وملها الأرستقراطى ، فى هروبها من الواقع وهجرها ميدان العمل ، فى أثرتها وشذوذها

(١) هو اتفاق عقدته بريطانية مع فرنسة فى لندن فى أواخر عام ١٩٤٥ وقررنا فيه مصير سورية ولبنان دون استشارتهما وأقامتا لهما فى البلدين حقوقاً وامتيازات - ولم ينفذ هذا الاتفاق قط .

(٢) هو تشريع حاولت الحكومة إصداره فى خريف عام ١٩٤٦ ويتضمن منحها سلطات دكتاتورية كتعطيل الحريات العامة ووضع القيود الثقيلة على الصحافة .

فى تفرقها وتناقضها .

هل يرغب أستاذنا الفاضل فى أن يثور أهل الشام وأن يقتتلوا من أجل سواد عيون هذه الخاصة المترفعة ؟ أفلا يرى الصلاح كل الصلاح — بعد الاستقلال — فى ذلك التطور الطبيعى وذلك التدرج المحمود وتلك الحركات الشعبية السليمة التى أوجدت لنا مجلساً جديداً للنواب يمثل الأمة تمثيلا هو أقرب ما يكون إلى الكمال ؟ إلا يحوى هذا الوضع فى طياته ضماناً كافياً للمستقبل الذى ستتخلص فيه من تلك الأخطاء فى الحكم التى أشار إليها والتى لا ينكر وجودها - أو جلها — والتى لا تنفرد بلاد الشام فيها ؟ وما الذى جنته مصر من اغتيالاتها غير فقد رجل مثل (أحمد ماهر) لا يعوض ؟ وما الذى جناه العراق من ثوراته الداخلية غير الخسارة فى الأموال والأرواح ؟ .

وتقولون إن فى الشام نزعات « فهذا شيوعى وهذا نازى وهذا فاشستى وهذا فرنسى وهذا إنكليزى وهذا تركى وهذا سعودى وهذا هاشمى ، كل واحد على قدر مصلحته وبحسب منفعته ! » وهذا لا ينكر؛ ولكن الشكوى من هذه النزعات ليست منحصرة فى حدود الشام بل تكاد تكون عامة فى جميع البلاد العربية . لا بل فى جميع بلاد العالم . ثم إن أهل الشام جديرون بكل تقدير وإعجاب لأنهم فى الانتخابات الأخيرة أبعدوا عن الندوة النيابية بعض الأشخاص المروفين بالنزعات المتطرفة فأصبحت دائرة نشاطهم محدودة . هذا فضلا عن أن مكانتهم فى مجتمعهم كانت وما تزال ثانوية وأثرهم فى محيطهم كان وما يزال وسيبقى ضئيلا

سيدى الكريم :

أرى أن الوقت قد حان لإنهاء هذا الكلام الذى آمل أن تكونوا قرأتموه بما عرف عنكم من بعد عن الغضب وتشجيع للشباب وحب لكل ما يتصل بالفكر . وإنى أرجو فى الختام ألا تحرموا وطنكم من ثمرة علمكم وأن تعملوا على قتل النزعات المتباينة بإرشاد أهل الشام إلى الطريق السوى الذى ترون لهم فيه الخير والفلاح .

واقبلوا أصدق عبارات الإعجاب والاحترام .

بغداد
١٤ - ٢٩

علي حيدر الركابي

خواطر مسجونة :

الحب . . .

(لك من آمن بالحب ، ومن كفر به)

الحب كما عرفت ، فإن لم تكن على حقيقته وقفت ، فقد استرحت وأمنت ، وخير لك أن تظل كما أنت . فإن قالوا لك إنه رتبة سامية ، وحياة ثانية ، فقل لهم إنه عنيف جبار ، وشواظ من نار . وإن قالوا إنه أوحى وألهم ، وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فقل إنه قرين القلق ، وخدين الأرق ، بل الشغل الشاغل ، والداء القاتل !

فمن عرف الحب طاهراً قاهراً ، بات حائراً ساهراً ، يناجى من حبيبه روحاً دانياً ، وشبحاً نائياً ، قانعاً من الحب بروحه لا بذاته ، ومن الحب بنيرانه لا بجنانه وربما زعم أن هذا لا يكفيه ، فاستزاد ربه على ماهو فيه ، فقال يامن خلقت قلبى رقيقاً ، وأصليته حريقاً ، أردتنى صباً ، فزدنى حباً ، وهبنى جنوناً هو عندى الهدى ، وفى غيره يضيع العمر سدى ...

هكذا ترى الولهان متفلسفاً فى خباطه ، أو مسرفاً فى اغتباطه ، فإن خير بين سهاد الشجى ، ورقاد الخلى ، آثر الأول ، كارهاً أن يتحول . ولو وهب أيامه للصبر ، وسحب أوهامه إلى القبر ، فإن ذهبت مذهبه ، وأعجبك ما أعجبه ، وآمنت بأن حياة الحب فناء فى رضاه ، فانشد إن شئت فى ذلك الموت تلك الحياة . وإن شئت فاهزأ بالحب والمحبين ، ودعهم فى نارهم معذبين وحسبك دنيا محدودة الأبعاد ، تمرح فيها فارغ الفؤاد ، ضاحكا بملء شدقيك لا لك ولا عليك !

ولست بشارح لك حقيقة الحب ، فالحب يعرفه من أحب . وإن قدر لك الحب ووقعت ، عرفت ما من شرحه امتنعت !

حامد بدر